

من أدباء الصعير في القرون السارسة

الرشيد الأسواني

للأستاذ محمود عزت عرفة

في عام ٥٤٩ هـ قتل الخليفة الفاطمي الظاهر بأعداء الله في دار
وزارته بالسيوفية ؛ وعهد بالأمر من بعده لابنه الفائز « عيسى » ؛
وقد أقيم وقتذاك بقصر الخلافة حفل كبير لتأبين الخليفة المقتول ،
أمه شعراء الدولة من كل إقليم ، فأنشدوا مرثيتهم حسب مراتبهم ؛
ثم نهض في آخرياتهم رجل تتخطاه الميون ، أسود الإهاب ،
عليه أطهارثة ، وطيلسان من صوف ؛ فأنشد قصيدة أوها :
ما للرياض تمهل سُكرا هل سُقيت بالمزْن خرا ؟
... ولما وصل منها إلى قوله :

أفكرُ بلاه بالمرسا قِ وكرُ بلاه بمصرَ أخرى ؟

كان الفائز قد بلغ من الحاضرين مبلغه ، فجاشت قلوبهم
بزفرات من الأسي ، وزدت أصوات من البكاء والإهوال
هنا وهناك ... وظل الحزن متلجأ في النفوس حتى فرغ
الشاعر من إلقاء ما تهبأ له ، فنادر منبره وقد شجى وأشجى
وكان أن رمقه الميون بنظرات الإهجاب والإكبار ، وانثالت
عليه المطايا من الأمراء والحاشية والخدم وحظايا القصر ؛ ومحل
إليه من قبيل الوزير - طلائع بن رزيك - جملة من المال ؛
ثم قيل له في شبه اعتذار : لولا أنه العزاء والمآتم لجاءتك الخلع ا
ذلكم هو شاعر الصعير أبو الحسين أحمد بن علي بن ابراهيم
ابن الزبير النساني « الأسواني » الملقب بالرشيد ، وصفه ياقوت
في معجمه فقال : « كان على جلالة وفضله ، ومنزلته من العلم
والنسب ، قبيح النظر ، أسود الجلد ، جهم الوجه ، سمج
الخلقة ، ذا شفة غليظة وأنف مبسوط تكلفه الزوج ، قصيراً »
وترجم له كثير من المصنفين غير ياقوت : كالمعاد الأصهباني
(صاحب الحريدة) ، وأبي الطاهر أحمد السُلُكي ، وابن خلكان
وكمال الدين الأديوي .

على أن واحداً من هؤلاء لم يذكر لنا سنة مولده على وجه
التحديد ، وإن كانوا قد أجموا على أنه توفي عام ٥٦٣ هـ (١)

(١) خالف ياقوت في ذلك فقد ذكر أنه توفي عام ٥٦٢ هـ والأول أصح

نشأته وأهموقه

كان أبو الحسن من أهل الفضل والنباهة والرياسة ، ينتمي
إلى بيت كبير واسع الثراء من بيوتات الصعيد ، وكان يداخل
فضه شيء من الكبر والأنفة والطموح ، وقد لازمته هذه
الترعة طيلة حياته ، بل جنت عليه أكثر من مرة ، وأذاقته
ضارة الكره والشهامة من نظرائه ، والتحييف والعسف من
ولاية بلده وحكامه

وما من شك في أن مصرعه الرهيب على يد شاوور وزير
الماضد - كما سيأتي - مما يمت إلى هذه الصفات التي غلبت
عليه بسبب قريب أو بعيد

لقد وصفه الشيخ الحافظ زكي الدين المنذرى فقال : كانت
في نفسه عظمة ا وقال عنه ابن شاكر الحموي في مشيخته : كان
الرشيد عالي الهمة ، سامى القدر ، عزيز النفس ، يترفع على الملوك
ويرقى بنفسه عنهم (١)

وذكره ابن أبي المنصور في كتاب البداية فقال : كان
قد اجتمعت فيه صفات وخلاتق تميز على جهائه ، منها أنه كان
أسود ، ويدهم الذكاء ، وأن خاطره من نار (٢)

ولقد ضمه ليلة - مع جمع من الفضلاء - مجلس للملك
الصلاح بن رزيك ، فألقى عليهم مسألة في اللغة مجزوا جميعاً عنها ،
حتى أتى هو بفصل الخطاب فيها . فلما أبدى الملك الصالح إعجاباه
قال الرشيد مقتخراً : ما سئلتُ قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد
فهما ... فقال محمود بن قادوس الشاعر وكان حاضراً :

إن قلتَ : من نارِ خُلِقْتَ وقُتتْ كلُّ الناسِ فهما
قلنا : صدقتَ فإ الذي أطلقاك حتى صرتَ فخا ؟
ومما قاله فيه ابن قادوس أيضاً ، وكان به مُشرى :

يا شِبُه لقان بلا حكمةٍ وخاسراً في العلم لا واسخاً
سلختَ أشعار الورى كلها فصرت تدعى (الأسود الساخا) ا
ويبدو أن الرشيد لم يكن يخلو - مع هذا - من حب

المفاكمة ، والميل إلى التندر والمداعبة . ولقد كان مما قصه عن
نفسه لبعض أصحابه أنه مر ذات يوم بموضع في القاهرة ، فإذا
امرأة شابة صبيحة الوجه تنظر إليه نظر مُطِيعٍ في نفسه ،

(١) ، (٢) الطالع السيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى
الصعيد لكمال الدين الأديوي ص ٩٤

مجموعة رسائل ودويان شعر ... ومن شعر الرشيد قوله معاتباً
بعض أصحابه :

لئن غاب ظني في رجائك بعدما
ظننتُ بأنّي قد هفرتُ بمنصف
فإنك قد قلدتني كل منة
ملكته بها شكري لدى كل موقف
لأنك قد حذرتني كل صاحب
وعلمتني أن ليس في الأرض من ينفي ا

ومن قوله في الافتخار بنفسه :

جلت لئى الزايات بل جلّت همى
وهل يضر جلاله للصارم المكر ؟
غيرى بمنيره من حُسن شيمته

سرفُ الزمان وما يأتي من التغير
لو كانت النار للياقوت محرقه
لا تُقرين بأطوارى وقيمته
فإنما هي أميدان على دُرر
ولا تظن خفاء النجم من صفر
فلذنب في ذلك عمول على البصر
وروى عنه أبو الطاهر السُّلَكي (في بعض تمايلته) ما أنشد
إياه لنفسه وهما بالأسكندرية :

سمحنا لدنيا بما بخلت به
فيا ليتنا لما حُرمتنا سرورها
علينا، ولم نجعل بجمل أمرها
ووقينا أذى آفاتها وشرورها

رحلته إلى اليمن

سافر الرشيد الأسواني إلى اليمن رسولاً ، داهياً للتخليفة
الفاطمى . ويبدو أنه قوبل هناك بمفاوة سرته ، وطاب له المقام
حيناً ، حيث تقلد منصب القضاء والأحكام ولقب بـ « قاضى
قضاة اليمن وداعى دعاة الزمن » ... ويقول ياقوت إن نفسه
طمحت وقتذاك إلى رتبة الخلافة ... « ففسى فيها ، وأجاب قوم ،
وسلم عليه بها ، وضربت له السكة . وكان نقش الكتابة على
الوجه الواحد : قل هو الله أحد الله الصمد ، وعلى الوجه الآخر :
الإمام الأجدد أبو الحسين أحمد (١) » .

لمرود عزت هزل

(للقال بنية)

(١) معجم ياقوت ج ٤ ص ٥٥

وتشير بطرفها ، قال (١) : « فتمبها وهي تدخل في سكة وتخرج
من أخرى ، حتى دخلت داراً وأشارت إلى فدخلت ؛ ووفت
التقاب من وجه كالمعرق في ليلة تمامه ، ثم صفت بيديها مناديه :
يا ست الدار ا فنزلت إليها طفلة كأنها فلقة قر . فقالت لها : إن
رجعت تبولين في الفراش تركت سيدنا القاضى بأكلك ا
ثم التفتت وقالت : لا أعدسنى الله إحسانه ، بفضل سيدنا القاضى
أدام الله عزه ! قال : فخرجت وأنا خزيان خَجَلًا لا أهتدى
إلى الطريق (٢) »

ثقافته الأدبية والعلمية

كان الرشيد كاتباً شاعراً ، فقيهاً نحوياً لغوياً ، منشئاً
عروضياً مؤرخاً ، منطقياً مهندساً ، عارفاً بالطب والموسيقى
والنجوم متفنناً (٣)

وقد ذكر صاحب الخريدة أن له رسالة « أودعها من كل علم
مشكله ، ومن كل فن أفضله » قال الأدنوى (٤) : « وقد وفقت
أنا على رسالته ، وهي تدل على جودة معرفته بالفقه والنحو واللغة
والصرف والأنساب والكلام والنطق والمهيشة والموسيقى
والطب وأحكام النجوم وغير ذلك ... »

وقال محمد بن عيسى الهبلى : كان الرشيد أستاذى فى الهندسة .
ويعتبر كتابه (جَنَّانُ الْجَنَانِ وَرِياضُ الْأَذْهَانِ) أهم مصنفاته
وأشهرها . وهو يشتمل على مختارات جيدة لشعراء مصر ومن
طراً عليهم . وله غير هذا الكتاب مؤلفات أخرى أورد ياقوت
في مجمعها :

كتاب « مُنِيَّةُ الْأُمَى وَبُنْيَةُ الدَّمْعَى » . كتاب « الهدايا
والطرف » (٥) . كتاب « شفاء النُفَّةِ فِي سَمْتِ الْقِبَلَةِ » .

(١) معجم الأديب ياقوت ج ٤ ص ٥٩

(٢) تشبه هذه النعمة ما حكاه الجاحظ عن نفسه إذ قال : ما أخرجني
قط إلا امرأة مرت بي إلى سائح فقالت له : اعمل مثل هذا . فبيت
مبهوتاً ، ثم سألت السائح فقال : هذه امرأة أرادت أن اعمل لها صورة
شيطان فقلت : لا أدري كيف أمره . فأنت بك لأصورة على صورتك ا

(٣) معجم ياقوت ج ٤ ص ٥٢

(٤) الطالع السعيد ص ٤٧

(٥) يسببه البهاء المشقى « المجالب والطرف » وقد نقل عنه فتنه
في كتابه « مطالع البدور في منازل السرور » ج ١ ص ١٢٨ . الباب
التابع شعر ، في آية الراج .